حالة البلاد قبيل الثورة

تدهور الموقف السياسي

قبل الثورة بعامين كان الموقف السياسي يتدهور ، وهيبة النظام تتآكل ، وحماقات الملك في نفس الوقت تتضاعف ، وتتسم بعدم المبالاة أو سلامة التقدير ، والتهبت الصحف بمقالات نقدية عنيفة تفضح التصرفات الشخصية للملك ورجال الحاشية بعبارات مستترة ، ولم يفلح قانون حماية أخبار القصر في وقف هذه الحملة.

وألقى محمد صلاح الدين [1] بيانه أمام مجلس النواب يوم ١٦ أغسطس ١٩٥١ حمل فيه حملة عنيفة على الاستعمار البريطاني والسياسة الإنجليزية في فلسطين التي انتهت بإنشاء إسرائيل ، وأشار إلى وجوب جلاء الإنجليز عن قاعدة قناة السويس قبل الموعد المحدد في معاهدة ١٩٣٦ وهو عام ١٩٥٦ ، وتأكيد الوحدة بين مصر والسودان . وإلا ستعمل حكومة الوفد على إلغائها .

وتلقت الجماهير خطاب وزير الخارجية ليكون نقطة انطلاق لها في حركتها التي كانت تتصاعد يوماً بعد يوم حتى ٢٦ أغسطس – تاريخ توقيع معاهدة ١٩٣٦ – فقررت التنظيمات السياسية التظاهر وخرجت القاهرة عن بكرة أبيها

(١) وزير الخارجية في الحكومة الوفد الأخيرة التي تشكلت في ١٩٥٠/١/١٢.

obeikandl.com

على حد تعبير جريدة المصري ،وحدث تصادم بين البوليس والمتظاهرين فأصيب البعض من الطرفين ، واستمرت المظاهرات تموج في القاهرة حتى المساء .

ووجدت الحكومة الوفدية أنها تفقد كثيراً من رصيدها الشعبي أمام موجة الحماس التي تجتاح الشعب ، ووجدت أيضا أنها قد أصبحت محاصرة بوعدها الذي قطعته على نفسها بإلغاء المعاهدة . [1]

إلغاء معاهدة ١٩٣٦

وقف النحاس باشا على منبر مجلس النواب مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٥١ ، وألقى بياناً مستفيضاً عن سياسة الحكومة نحو معاهدة ١٩٣٦ ، أعلن فيها قطع المباحثات السياسية بين الحكومتين المصرية والبريطانية بعد أن تبين بجلاء عدم جدواها كما أعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ بكلمته التاريخية :" من أجل مصر أبرمت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها " كما ألغى اتفاقيتي ١٩ يناير و١٠ يوليه سنة ١٨٩٩بشأن إدارة السودان ، كما قدم مرسوماً بمشروع قانون بتبديل الدستور وجعل لقب الملك " ملك مصر والسودان . " [2]

وفي يوم ٩ أكتوبر ١٩٥١ أصدر وزير خارجية المملكة المتحدة البريطانية بياناً مقتضباً أعلن فيه أن حكومته لا تعترف لا بحق مصر في إلغاء المعاهدة ولا بقانونية الإجراء الذي أقدمت عليه بإلغائها . [3]

ويوم ١١ أكتوبر ١٩٥١ وجهت حكومة المملكة المتحدة البريطانية تحذيراً للحكومة المصرية تحملها فيه المسئولية كاملة عن حياة الرعايا الأجانب وعن

---

(1) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليو " الجزء الأول مرجع سابق ص ١٥٢ ، ١٥٣.
(2) عبد الرحمن الرافعي " في أعقاب الثورة المصرية " ج٣ مرجع سابق ص ٣٣٥.
(3) نفسه ص ٣٣٥.

ممتلكاتهم ؛ لأن إلغاء المعاهدة من جانب واحد والأجواء التي صاحبت الإلغاء، أطلقت العنان لمشاعر معادية للأجانب مما أدى بالفعل إلى وقوع حوادث . [1]

الكفاح المسلح ضد الإنجليز

كان إلغاء المعاهدة – حتى وإن كان من جانب واحد – إعلاناً ببدء الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطانية في منطقة القناة . وحافزاً لتجمع القوى الاستعمارية والرجعية في محاولة للإطاحة بالحكومة الوفدية التي استردت كامل شعبيتها ، وتحركت التنظيمات السياسية تعد نفسها للكفاح المسلح .

يقول فؤاد سراج الدين (سكرتير عام الوفد ووزير الداخلية والمالية في حكومة الوفد الأخيرة) : " من حسن الحظ أن أوحى لنا الإنجليز بما يتبع ، فقد حدث خلال مناقشة مع سير رالف ستيفنسون أن عرضت عليه مغادرة القنال إلى قبرص أو مالطة ، فأجاب بأنه لا يوجد في أي منهما المزايا التي تتوافر في قناة السويس والتي عددها بالآتي :

١– الأيدي العاملة متوافرة ورخيصة .

٢– وسائل النقل برّاً بالسكة الحديد والطائرات والبحر متوفرة .

٣– الحياة الاجتماعية منتعشة في مدن القناة وهي مسائل جوهرية لقواتنا المسلحة وأعددنا خطتنا على أساس إفساد هذه المزايا .

١– أصدرنا تشريعاً بسجن كل عامل يعمل في القاعدة البريطانية إلى جانب إذكاء الروح الوطنية لعدد يتراوح بين ٤٠.٠٠٠ ، ٥٠.٠٠٠ عامل ، وخلال أيام

([1]) بالفعل فإن بريطانيا قد تمسكت بمعاهدة ١٩٣٦ ولم تخرج من مصر إلا في عام ١٩٥٦ وهو الميعاد الذي تحدده المعاهدة لخروج الجيش الإنجليزي من مصر .

قليلة وصلت نسبة البطالة ١٠٠ % ، وقام وزير الشئون الاجتماعية بترحيلهم للقاهرة ودفع مرتباتهم كاملة .

٢- أصدرنا قراراً وزاريّاً بمنع السكك الحديدية المصرية من نقل أي مهمات أو مواد إلى القاعدة ، وكذلك منعنا النقل النهري ، وأصدرنا تشريعاً بسجن كل من يتعاون مع أفراد القوات البريطانية ، الأمر الذي اضطرهم إلى التموين بالطائرات من قبرص .

٣- أما عن الحياة الاجتماعية فقد نشط فيها الفدائيون الذين كانوا يصطادون أي ضابط أو جندي ينفرد بالظهور في مدن القناة.

وأذكر أن السفير أرسل خطاب احتجاج شديد على مصرع أكبر خبير لهم في شئون حرب العصابات ، وكان قد حضر من حرب كوبا.

وكان عدد كبير من المحركين لهذه القوات من ضباط البوليس الذين يلبسون ملابس مدنية . وهكذا بدأ الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية في منطقة القناة يتصاعد ... وفي يوم ٢٠ يناير ١٩٥٢ حضر إلى مكتبي بوزارة المالية نجيب باشا الراوي وقال لي : إنه يحمل رسالة من نوري سعيد مفادها أن الإنجليز أفلسوا تماماً وهم يطلبون حلاً لا يريق ماء الوجه ، وهم موافقون على كل شيء شرط إيقاف أعمال الكفاح المسلح في قناة السويس . قلت لنجيب الراوي : لا يوجد مصري يجرؤ على هذا.

نجاح معركة القناة

نجحت معركة القناة إلى الحد الذي دفع على ماهر باشا إلى القول بعد ذلك في محكمة الثورة : إنني كنت أشعر أنني سأكون أقوى مفاوض مصري نتيجة

معركة القناة . وهكذا تحول الأسلوب التقليدي في مفاوضات الإنجليز إلى كفاح مسلح في القناة . [1]

إن الكفاح ضد الإنجليز وما تخلله من بطولة وفداء ، وجهاد وتضحية ، ومقاطعة تامة، وعدم تعاون مع الاحتلال ، ومنع التموين عن قواته قد أنتج ثمرات طيبة كان لها أثرها في تغيير وجهة النظر البريطانية في فائدة القاعدة الحربية في قناة السويس ، فإن هذه القاعدة لا تكون صالحة للقتال أو إيواء جيش كبير إلا إذا كانت مسنودة من شعب صديق ، وحكومة صديقة ، وأن تكون مواصلاتها ووسائل تموينها سهلة ميسرة مكفولة في حالة السلم ، وخاصة في وقت الحرب .

ولقد تبين من كفاح المصريين سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢ أن هذه القاعدة مهددة بالخطر، وعديمة الجدوى للإنجليز في حالتي السلم والحرب جميعاً .

فالتضحيات التي بذلت والدماء التي سفكت في معارك القتال لم تذهب عبثاً، بل إن لها فضلاً كبيراً في جنوح الإنجليز إلى قبول الجلاء . بعد أن كانوا مُصرِّين على الرفض، ولقد اعترف الإنجليز في غمرة الكفاح بهذه الحقائق .

قال اللورد ستانسجيت في هذا الصدد في مجلس اللوردات : " إن القاعدة البريطانية في منطقة القناة أصبحت لا تصلح عسكريّاً ، وإن الكُره الذي يحف بها يجعلها مهددة ، فلا معنى لبقائها ".

ونشر مراسل صحيفة التيمز في منطقة القناة مقالاً في عدد ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٥١ وصف فيه حالة المعسكرات البريطانية ، واعترف بفداحة الضربة التي

---

(١) شهادة فؤاد سراج الدين لأحمد حمروش والتي ضمنها كتابه " شهود ثورة يوليو " ص ٩٦٤ ، ٩٦٥.

obeikandi.com

أصابت القاعدة الإنجليزية في القنال حين أجمع العمال المصريون على الانسحاب منها ، وما أعقب هذا الانسحاب من إشاعة الفوضى والارتباك فيها ، واعترف بفشل المحاولات التي اتخذت لجلب العمال من الخارج ، وقال إن الأعمال الحيوية في المعسكرات أصيبت بارتباك خطير ، وأصبح من المتعذر صيانة المقادير الهائلة من المعدات العسكرية ،وأشار إلى أن أعمال الفدائيين المصريين قد أقضَّت مضاجع الجنود البريطانيين ، وانقلبت الأمور في منطقة القناة بالنسبة للجيش البريطاني رأساً على عقب ، فبدلاً من أن يركز قواته في الاحتفاظ بالقاعدة والنهوض بها من كافة الوجوه أصبح يركز جهوده في حماية نفسه من هجمات الفدائيين.

وبلغ من شدة توتر أعصاب الجنود البريطانيين أنهم باتوا يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت قيمتها نتيجة الشعور الوطني المعادي وعما إذا كان من الأوفق تجنب احتكاكات سياسية جديدة بالبدء في إنشاء قاعدة أخرى في جهة تعرب حكومتها عن رغبتها في الانضمام إلى قيادة الشرق الأوسط أو على الأقل في منطقة لا يكون وجود القوات الإنجليزية فيها مدعاة للسخط والاستنكار"[1]

الإنجليز يتأهبون للرحيل

لقد كان سلاح المقاطعة الذي انتهجته مصر حكومة وشعباً ضد الاستعمار الإنجليزي وكذا كفاح الفدائيين الأبطال هو السبب الحقيقي في جلاء الإنجليز عن مصر وكان يمكن أن يتم هذا الجلاء إذا بقي الوفد في الحكم ، ولم يقله الملك

(1) نقلا عن عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " ص ١١٨ ، ١١٩.

بضغط من الإنجليز ، فما جرى في منطقة القنال سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢ كان بلا ريب سيجبر الإنجليز على الإسراع في إتمام الجلاء وعدم الانتظار إلى سنة ١٩٥٦ للجلاء وهي آخر سنوات اتفاقية ١٩٣٦ العشرين.

فلم تكد حوادث الكفاح في القتال تتوالى حتى كانت الصحف العالمية ومحطات الإذاعة في الشرق والغرب تتحدث عن هذا الكفاح وتطوراته وكانت هذه الأنباء أكبر دعاية لجهاد مصر في سبيل تحررها من الاستعمار ، وصارت القضية المصرية موضع حديث العالم وموضع تقدير أنصارها وخصومها على السواء . [1]

لكن إقالة حكومة الوفد ذات الأغلبية وتعاقب حكومات المستقلين ، وقيام ثورة ٢٣ يوليو قد أجَّل الاستقلال إلى ١٩٥٦ .

المظاهرات تعم البلاد

كانت المظاهرات عقب إلغاء النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ وإعلان الكفاح المسلح ضد الإنجليز – قد عمت معظم المدن المصرية مطالبة بالقتال والسلاح ، وكانت القوات الإنجليزية تتصدى بعنف لهذه المظاهرات ، ولم تتورع عن سفك دماء المتظاهرين مما ترتب عليه قتل ٧ متظاهرين وجرح ٤٠ آخرين في الإسماعيلية، وقتل ٥ متظاهرين وجرح الكثير في بور سعيد ثم وضعت القوات البريطانية منطقة القنال تحت حكم عسكري مباشر متجاهلة السلطة المصرية .

وفي يومي ١٧ ، ١٨ نوفمبر ١٩٥١ أطلق الإنجليز النار على ثكنات البوليس في الإسماعيلية فردَّ هؤلاء وسقط القتلى والجرحى من الجانبين ، وفي ٣ ديسمبر

---

(١) نفسه " ص ١١٨ .

obeikandi.com

أطلق الإنجليز النار على بعض قوات البوليس في السويس واستشهد ٢٨ مصريّاً منهم ٧ من رجال البوليس ، وقتل من الإنجليز ٢٢ وتجدد الاشتباك في اليوم التالي وسقط ١٥ شهيداً .

وفي ٨ ديسمبر طلب الإنجليز إخلاء حي (كفر أحمد عبده) بدعوى تحصن الفدائيين به ، واجتمع مجلس الوزراء وقرر رفض الطلب ؛ فحشد الإنجليز آلاف الجنود ودبابات ومصفحات لم يكن ممكناً لقوة بوليس لا يزيد عددها عن ٤٠٠ أن تقاوم فانسحبت وهدم الإنجليز كفر أحمد عبده .[1]

كانت هذه الأحداث المتكررة تهيج مشاعر الشعب في مصر فتنطلق المظاهرات ، ويحدث من أفرادها اعتداءات على الممتلكات ، مما نبه العقلاء من المثقفين إلى التنبيه إلى خطورة هذا حتى لا يتخذ الإنجليز هذه الاعتداءات على الممتلكات والمنشآت الأجنبية ذريعة لمواصلة التنكيل بالمتظاهرين واتهامهم بالفساد والفوضى والخروج على النظام ، مما يترتب عليه تحويل المظاهرات الوطنية المشروعة إلى بلطجة غير مشروعة .

وخاطب النحاس باشا الشعب طالباً منهم الهدوء ، وأصدر رؤساء تحرير الصحف بياناً بالعدول عن المظاهرات حتى لا يستغلها الإنجليز ، وقد وقَّع البيان معظم رؤساء التحرير ، لكن استشهاد الفدائيين في القنال ، وحالة الاحتقان التي عمت البلاد ، وتمادي الإنجليز في صلفهم ، وعجز الحكومة عن فعل شيء جدي،وصمت الملك عن كل هذا جعل وقف المظاهرات أمراً صعباً فقد كانت هي الاختيار الوحيد أمام الشعب للتعبير عن سخطه على الإنجليز وفساد الأوضاع .

([1]) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليو " الجزء الأول مرجع سابق ص ١٦٦ .

obeikandl.com

مجزرة الإسماعيلية

في يوم الجمعة ٢٥ يناير ١٩٥٢ وصلت الاستفزازات البريطانية إلى الذروة عندما احتشدت قوات ضخمة من الجيش البريطاني تشد أزرها قوات كبيرة من الدبابات والمصفحات ومدافع الميدان وحاصرت مبنى محافظة الإسماعيلية وثكنات بلوكات النظام ، وطالبت تسليم أسلحة جميع قوات البوليس من بلوكات النظام وغيرهم الموجودين بالإسماعيلية ، وجلاء تلك القوات عن دار المحافظة وعن الثكنات مجردة من أسلحتها في الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم ورحيلها عن المنطقة جميعها .

فاتصل قائد بلوكات النظام اللواء أحمد رائف بوزير الداخلية فؤاد سراج الدين فطلب منه عدم التسليم ومقاومة أي اعتداء يقع على دار المحافظة أو على ثكنات بلوكات النظام أو على رجال البوليس أو الأهلين ، ودفع القوة بالقوة ، والصمود في الدفاع حتى آخر طلقة مع القوات كما طلب تبليغ ذلك إلى القيادة البريطانية .

وبعد دقائق عاد القائد البريطاني وأبلغ قائد البوليس المصري بأنه إذا لم تسلم القوات المصرية أسلحتها فوراً فستهدم دار المحافظة والثكنات على من فيها . فأصر القائد المصري على رفض التسليم ، وأصدر أمره إلى القوات التي تحت إمرته بالمقاومة إلى النهاية إذا بدأ العدوان الإنجليزي .

وبعد دقائق نفَّذ البريطانيون إنذارهم وأخذوا يضربون دار المحافظة والثكنات بالمدافع ويطلقون عليها القنابل ، وانهال الرصاص من الدبابات والسيارات المصفحة على جنود البوليس .

فردَّ جنود البوليس البواسل على هذا العدوان بالدفاع المشرف وقابلوا الضرب بضرب مثله مع الفارق بين القوتين في العدد والمعدات الحربية والأسلحة ، فإن قوة البوليس لم تكن تزيد على ثمانمائة جندي بثكنات بلوكات النظام وثمانين بالمحافظة، وليس لديهم من سلاح سوى البنادق ، أما قوات الإنجليز فكانت تبلغ سبعة آلاف جندي مسلحين بالدبابات الثقيلة والمصفحات والسيارات والمدافع .

ونشبت معركة بين الطرفين دموية رهيبة ، وظلت القوات المصرية تقاوم ، ولم تتراجع ، ولم يضعف من استبسال الجنود المصريين تهدم مبنى المحافظة من ضرب المدافع واشتعال النيران فيه ، واستمروا في مقاومتهم حتى نفدت ذخيرتهم،ومن ثم استسلموا للأمر الواقع .

وأحنى قائد القوة البريطانية رأسه احتراماً لهم ، وقال لضابط الاتصال بأن رجال القوات المصرية جميعاً قد دافعوا بشرف واستسلموا بشرف فحق عليه احترامهم جميعاً ضباطاً وجنوداً .

وقد سقط في ميدان الشرف في هذه المعركة من جنود البوليس خمسون شهيداً،وأصيب منهم نحو ثمانين جريحاً . وقدرت القيادة البريطانية خسائر الإنجليز بثلاثة عشر من القتلى ، و١٢ جريحاً ، والراجح أنهم حوالي عشرين قتيلاً وثلاثين جريحاً .[1]

([1]) عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " مرجع سابق ص ١٠١ – ١٠٣ بتصرف .

٢٥ يناير عيد الشرطة وعيد الثورة عليها

وتخليداً لهذه الذكرى التي أدمت قلب مصر فقد تقرر أن يكون يوم ٢٥ يناير من كل عام عيداً للشرطة إحياء لذكرى الدماء التي جرت من أجل مصر وللرجال اللذين رفضوا تسليم سلاحهم الوطني وقاتلوا حتى آخر طلقة معهم .

وعن هذه الذكرى يقول جمال عبد الناصر : " إننا كنَّا نرقب دائماً أيام القتال كيف كان يكافح رجال البوليس العزل من السلاح رجال الإمبراطورية البريطانية المسلحين بأقوى الأسلحة وكيف صمدوا ودافعوا عن شرفهم وشرف الوطن ، كنَّا نرقب كل هذا وكنَّا نحس في نفس الوقت أن الوطن الذي يوجد فية هذا الفداء وتوجد فيه هذه التضحية لابد أن يمضى قدماً إلى الأمام .. لابد أن ينتصر .. "

والعجيب أن العسكر الذين حكموا مصر بعد ثورة يوليو قد حوَّلوا أجهزة الشرطة من أجهزة وطنية تدافع عن المواطنين ضد أعداء الوطن إلى أداة قمع وإرهاب لكل وطني صاحب رأي ، ولكل معارض لسياسة النظام الحاكم ، ولكل مظاهرة سلمية تطالب بالعيش والحرية والكرامة الإنسانية ؛ مما جعل الداعين لثورة ٢٥ يناير يختارون عيد الشرطة موعداً لانطلاق ثورتهم ضد نظام الدولة الفاسد المستبد وأجهزة الشرطة القمعية .

***